

# الحياة الدينية

بقيلة البرانس بداية القرن العشرين

تقديم :

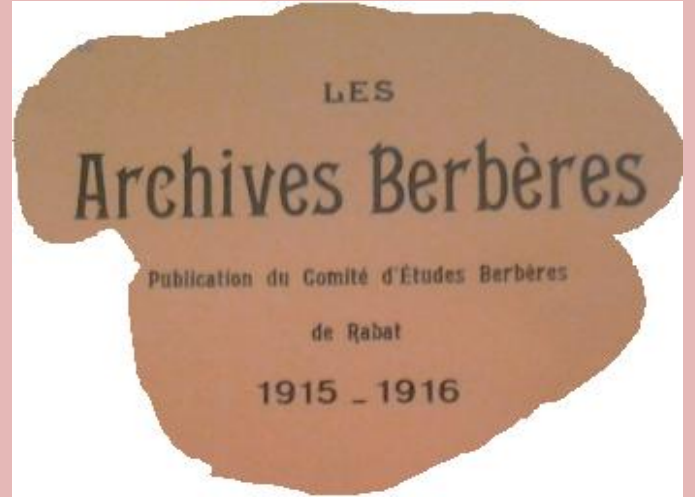
في سنة 1915 / 1916 أصدر ترينكا TRENGA مونوغرافية بمجلة " الارشيف البربري " حول قبيلة البرانس وذلك تطبيقا لتوجيهات الإقامة العامة الفرنسية التي تحت الضباط العسكريين على إحداث قاعدة معطيات والقيام بدراسات تخص المناطق التي يسيرونها. إذا كان الهدف هو تسهيل عملية السيطرة وضمان استمرارها بفعالية وبأقل تكلفة فإن هذا الأرشيف الآن يعتبر ذا فائدة قصوى بالنسبة لأي مهتم وباحث . وتعميما للفائدة اخترنا محور : الحياة الدينية المضمن ضمن مونوغرافية "البرانس" . مع إغفال بعض الصفحات الخاصة بقبيلة غيابة حفاظا على وحدة الموضوع .

تعريب : محمادي هرنان

مراجعة وإغناء (بتوضيحات داخل المربعات) : محمد الخدادي

LES BRANES , NOTES POUR SERVIR A UNE MONOGRAPHIE DES TRIBUS BREBRES DE LA REGION DE FES :

TRENGA , OFFICIER INTERPRETE.



## I - الشرفاء والمرابطون

### الشرفاء:

يتكون الشرفاء من: أهل وزان ، أولاد مولاي عبد السلام بن مشيش، وأولاد سيدي أحمد الحراق

#### 1 -أهل وزان:

أ- يستقر أولاد سيدي المهدي بمنطقة جرفاطة بمنابع وادي اللبن، الذي يصب في وادي إيناون، وهم أربعة أبناء لسي المهدي : سيدي العربي ، وسي احמידو، ومولاي الطيب، ومولاي عبد الله. يشكلون تجمعا سكنيا كبيرا حول ضريح جدهم، سيدي محمد زين العابدين، ويتمتعون بمكانة تجعل كلمتهم مسموعة بين قبيلتي البرانس وصنهاجة غدو. يتمتع سي محمد بن سي محمد زين العابدين، أي أخ الراحل سي المهدي، بسمعة طيبة لدى البرانس .

يستقر اثنان من أبناء سي الحاج الراضي، أحدهم يسمى سي محمد، وكذلك اثنان من أولاد سي احمد زين العابدين، بوادي جرفاطة.

ب- يتكون شرفاء منطقة مرتيشة من أولاد سيدي الحاج احمد، بزعامة سي بلقاسم، الذي يعيش معه كل من سي محمد ولد عبدالجبار، وسي التهامي، ابن الحاج أحمد، صاحبي السمعة الطيبة.



منطقة مرتيشة

يصل عدد أعضاء زاوية مرتيشة حوالي خمسة عشر شريفا.

ج- يستقر أولاد سي الفرغري بباب العشوب ببني بويعلا. كان زعيمهم سي الحاج محمد، قبل وفاته منذ شهرين، شيخا خلال السنة الفارطة على ربع من قبيلة التسول.

د- يستقر أولاد سي الحاج إبراهيم، وهم من أقارب سي المهدي، بجرفاطة، في غدير شعيب بأولاد رحمون، حيث يتوفرون به على منزل.

هـ- يستقر سي محمد بن عبدالله كحیحل رفقة ولديه في بوشوكة بدوار المعاعدة .

و- يستقر سي محمد بن محمد، ابن أخ سي الحاج إبراهيم، بأولاد سيدة بالطايفة.

2- أولاد مولاي عبدالسلام بن مشيش.

أ- يستقر عدد كبير منهم، أي حوالي 100 شريف، بعين معارفة، الواقعة بين اولاد عيسى وبني افتح. يطلق عليهم اسم 'أولاد عبد الوهاب'، وزعيمهم هو سي عبد السلام ولد سي البشير، المحبوب من طرف سكان المنطقة.

ب- أولاد سيدي الطيب، يتراوح عددهم بين 10 و15 شريفا، ويستقرون بسيدي بوربيع، بأولاد عبو .

3- الحراقيون

يعتبر الحراقيون أنفسهم شرفاء منحدرين من سيدي أحمد الحراق، وأصلهم من أهل سريف. يصل عددهم الى 20 شريفا ويستقرون في تجمعين سكنيين: الأول بعين ثلج قرب جرفاطة، والثاني بستريت، بالقرب من الفزازرة، لكن مكانتهم وتأثيرهم ضعيفين.

## المرابطون:

يتكون المرابطون من اولاد سيدي يعقوب، وأولاد سيدي احمد الحاج، وأولاد سيدي يحيى .

### 1- أولاد سيدي يعقوب

يتشكلون من أربع مجموعات، تستقر الأولى بأغرم، قرب عين طرو، والثانية بالقرية، قرب الخروبة بين بني افتح والترابية، والثالثة بالميزاب قرب النوايل، أما الرابعة، فبعين سوق.

أهمل تريتغا trenga فرقة اليعكوبيين المستقرين في دوازي عين ثلاثة وباب جنان بأعداد كبيرة، بينما لا توجد منهم إلا عائلة واحدة بعين سوق، قرب مركز باب المروج حاليا: محمد الخدادي

يعتبرون أنفسهم أحفادا لسيدي يعقوب "مول قبرين"، وذلك لأن جثمانه مدفون في قبرين في نفس الوقت، (حسب الرواية المتداولة)، الأول بمنطقة رشيدة، على بعد 20 كلم جنوب غرب مدينة دبدو، والثاني بمنطقة فقوس، قرب اوطاط الحاج، على الضفة اليسرى لنهر ملوية.

الشريف سيدي يعقوب، الذي كان يعيش حياة سعيدة هادئة مع أبنائه بارشيدة، زار يوما ما بلدة فقوس، فتزوج ومات ودفن هناك، وبمجرد سماعهم الخبر، سارع أبناؤه بارشيدة بالتوجه ليلا إلى فقوس، وحملوا معهم الجثمان بعد استخراجهم من القبر.

في الصباح الباكر، وبمجرد اكتشاف واقعة نبش قبر أبيهم، سارع الأبناء إلى تتبع أثر المهاجمين ويلحقوا بهم في منطقة بطمة تانديت، الواقعة بين فقوس والوادي. بعد رفض إرجاع الجثة، ولوقف التشابك بالأيدي بين الطرفين تدخل سيدي احمد اليعقوبي الذي يوجد ضريحه بني ايلول موجهها كلامه إلى أبناء منطقة فقوس: عودوا إلى دياركم وستجدون الشريف في قبره. وهذا ما تحقق (حسب الرواية) حيث اكتشفوا أن جثة أبيهم ترقد في مكانها.

حاليا، ليست هناك علاقات متينة بين أولاد سيدي يعكوب والآخرين المتواجدين بمنطقتي فقوس وارشيدة. وهناك كذلك مجموعة قليلة العدد من أحفاد سيدي يعكوب بمنطقة الفحامة، جنوب دار الشيخ زوركان.

### 2- اولاد سيدي احمد الحاج

يبلغ عددهم 100 مرابط تقريبا، ويستقر أغلبهم في المجمة el mejma، بيني بوغلا، بين الفزازرة والكراكرة. أما الآخرون، فيعيشون متفرقين بالقبيلة ويستقر زعيمهم، سي عامر ولد سي علي بن قدور، بمنطقة المنزل -الكراكرة- بيني بوغلا، ويرجعون أصلهم إلى تلمسان وأنهم أحفاد لسيدي عبد الله منصور.



احد امسيلة يتوسط الغزازرة والكراكرة

إذا كان لا أحد يجادل في أن هذه العائلات من أصل شريف أو مرابط، فهناك فرق أخرى تدعي الأصل الشريف مثل أولاد بوسعدن، واللحانية. كما يعتبر القطا أنفسهم شرفاء أحفاد سيدي عبد العزيز السيفاوي، وجدهم مدفون بأولاد حدو، بفرقة فقوص، من قبيلة البرانس. وأخيرا، هناك أولاد بن عزوز، أحفاد الشريف سيدي يحيى، الذي يوجد ضريحه بين أولاد عبو وأولاد كون بوربة، وينتشر هؤلاء بكل أرجاء القبيلة، وأغلبهم بالطايفة.

يوجدون كذلك في باب أمسيون، بفرقة أولاد جرو. محمد الخدادي

## II-الزوايا confreries

هناك زاويتان تقتسمان بشكل غير متساو قبيلة البرانس .

### 1-التهاميون –وزان

يوجد أغلب أتباعهم بوربة وأولاد سيدة، بينما حضورهم بالطايفة وبني فقوص ضعيف.

### 2-التجانيون:

حققوا نجاحات كبيرة، إذ تعتبر بني بويغلا كلها تقريبا من أتباعهم، بالإضافة إلى القطا، المستقرين بباب العشوب، وتامزرارت وأهل الكوزات، وعشرة أعضاء/فقراء تيجانيين في بوهليل، بالطايفة. ومن الأهمية بمكان ذكر لائحة مقدمي الزوايا.

تازة:

المقدم سي محمد بن احمد القباقبي، من أولاد سيدي يعقوب (تازة وغيانة )

بني بوعلا:

سي عبدالقادر بن عبدالسلام ، سي عبدالرحمان بن عبدالسلام، سي محمد الملولي، سي محمد بن علي، الذي عين مقدا من طرف سي محمود لادي مروره بالبرانس، سي احمد بن عبد الله ، عبد الله بن احمد بن ناصر(أولاد بويان bou yian)، الفقير عامر (أولاد قدور)، العربي بن عبد الله (أولاد قدور)، عبد الله بلفقير ، احمد بلحسن، الفقير علي بن قدور، الفقير محمد ولد الصغير، المهدي ولد علي بن محمد، الفقير حمو بن الطيب بن العيساوي ، محمد بلهادي ، بوجمعة ولد سي علي ، الحاج محمد، الفقير علي بن الجيلالي ، الحاج محمد، سي محمد ولد علي بلقاضي، الحاج مسعود بن شراد.

### 3-الدرقاويون

لا يوجد بالبرانس سوى عدد محدود منهم، بينما الزوايا الأخرى منعدمة. يسبق لقب الفقير اسم كل شخص من الأهالي ينتمي إلى زاوية ما.

## III-التعليم الديني

يُدْرَس التعليم الديني بجامع كل دوار من طرف الطالب المتعاقد معه (المشارط). مهمة يقوم بها "الطولية" القادمون من مناطق جبالة وصنهاجة والنسول. وقبل ثورة بوحمارة، كان "الطولية" الأحسن كفاءة يأتون من منطقتي غمارة ولخماس، ويقال إن هؤلاء يقصدون الآن وهران لما توفره لهم من تعويضات وامتيازات أكثر أهمية.

لا يحصل الطالب على تعويض نقدي سنوي، بل تقوم الجماعة القليلة العدد بتمكينه من:

1- صحيفة : نصفها من القمح ونصفها من الشعير بالنسبة لسكان السهل، بينما سكان الجبل يؤدون ثلث الصحيفة من القمح والباقي من الشعير .

2- كزة (حزة) من الصوف عن كل قطيع غنم يتكون من 10 إلى 100 خروف، بينما يعفى مالك أقل من 10 خراف.

3- مخصصة من السم، ما يعادل جنهين تقريبا تؤدي سنويا بين 8 أبريل و15 ماي .

4- الأكل اليومي، ويوفره السكان بالتناوب (النوبة).

هذا بالإضافة إلى استفادته من "توازة" في الحرث، إذ يقوم كل شخص بتوفير نصف مد كبدور، وسكان الجبل اللذين لا يزرعون القمح كثيرا يؤدون نصف مد من الشعير، ويتم إقطاع المساحة المخصصة لهذا الغرض من الأراضي المحبسة، وإن لم توجد يتم كرائها من أحد سكان الجماعة. يومي الاثنين والجمعة يؤدي المحاضرة للطالب هدية نقدية (التحريرة)، كي يتم إخلاء سبيلهم قبل وقت الخروج. وأخيرا، أثناء نهاية الدراسة (ختم سلكة القرآن-التخريجة)، على كل محاضري أن يقدم هدية إلى الطالب تتراوح بين كرش (قرش) وبسيطة حسب المستوى التعليمي، الذي وصل إليه.

مدة المشاركة، أي العقدة، سنة فقط ويتم تجديدها برضى الطالب.  
يحتفظ "الطولية"، وحلهم من أصول جبلية، بارتباط مستمر مع مناطقهم، وغالبا ما يروجون أخبارا زائفة، مصدرها المناطق التي لم "تدنس من طرف النصارى".  
إنهم بمثابة كتاب عموميين، مطلعون على كل ما يدور بالقبيلة، ويمكن، بواسطة طرف ثالث، أن يشكلوا عناصر استخباراتية جيدة، لكن يجب وضعهم تحت المراقبة.  
كما يمكن الاستفادة من الشرفاء والمرابطين اللذين يحظون باحترام وتقدير القبيلة، رغم أن تأثيرهم بدأ يتراجع، نتيجة تغلغلنا داخل أراضي القبيلة.

في البداية، غالبا ما نلاحظ عدم تسرعهم في الانضمام إلينا، لكن عندما يصبحون عملاء لنا ويفقدون الكثير من مكانتهم، سيطلبوننا بتعويض وكذا تعيينهم قيادا.

ولأنه يوما ما قد يتحول إلى خطر كبير علينا، مادام يتحكم في القبيلة كزعيم روحي وكقائد، فنصيحتي هي أن نبقي رجل الدين بعيدا عن أي سلطة فعلية، وكلما أدى لنا خدمات جبلية، هناك أساليب كثيرة لتعويضه عنها.

في المناطق المحتلة من طرفنا، يوجد في كل عائلة شخص مضى به، يتكلف بالعلاقات مع السلطات الفرنسية وطلب رخص الزيارة... إلخ، بينما يبقى صاحب البركة بعيدا متجنباً أي اتصال مع مكاتب وممثلي السلطة الفرنسية. ولدينا في هذا الصدد نماذج داخل عائلات وزان ودرقاوة بغاس.

## IV-سيدي احمد زروق

الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن عيسى البرنوسى، المشهور كذلك بسيدي أحمد زروق، والمزداد بقبيلته البرانس سنة 1442 م ، يتطلب منا اهتماما خاصا.  
بعد أن تعلم قواعد اللغة بقبيلته، توجه إلى فاس لتلقي كل ما يمكن أن يلقيه له أساتذته بالقرويين. وبعد أن أصبح بدوره في مرتبة أستاذ، رحل إلى الشرق، وحل ببجاية (الجزائر) ليُدْرَس الطلبة لفترة معينة، قبل الانتقال إلى ليبيا، ويؤسس الطريقة الزروقية بها، وهناك توفي سنة 1494م.  
وكما يقال، لا احد يُعْتَرَفُ به نبياً في بلده، حيث إن الطريقة الزروقية لا يوجد بها أي عضو من قبيلة البرانس، القبيلة الأصل لسيدي أحمد، كما أن مذاهب هذا الإمام تتميز بمستوى عال يفوق مستوى السكان، وهي غير معروفة لديهم، ولا يحكي الناس بالقبيلة إلا عن أن العالم ترك العديد من المؤلفات القيمة، ولم يترك ورثا .

بالقرب من سبت وربة (الكوّزات) يشير الأهالي باحترام كبير إلى بقايا أطلال مسجد كان الإمام الزروقي يلقي فيه التعليم لتلاميذه.

تُطْلَقُ عبارة "ضامن البلاد" على سيدي أحمد، بحيث لم يسبق لأي شخص، بما في ذلك السلطان القوي مولاي الحسن، تهديد قبيلة البرانس، التي يحرسها سيدها.  
في هذا الإطار، يحكي السكان هذه الأسطورة:

يوما ما ثار بني بوعلام على قائدهم احمد بن الطيب العمراني، فنهبوا أملاكه وأحرقوا منزله، واستغل القائد وجوده في حركة السلطان بوحدة ، فاشتكاهم له، وقرر السلطان معاقبة الفاعلين.  
غادر مولاي الحسن فاس بمحلته، وحط الرحال بشجرة شعشاع بالقرب من أحد بني بوعلام. ظهر

سيدي أحمد للسلطان في الحلم قائلا: تركتك تمر بتراب القبيلة لأنك لم تقم بأي عمل عدواني ضد محميي، وأعرف أنك تريد ألان محاربتهم، لكن إن قضيت الليلة بهذا المكان سأدمرك. أصيب السلطان بالهلع، وتذكر ما قرأ في كتب أجداده بأن على السلطان الذي يحل بضريح سيدي أحمد زروق أن يطوي مظلمته الشمسية تعبيرا عن الخضوع للسيد، فأرسل إلى الولي ثورا كذبيحة، دون التجرؤ على زيارته. ولم ينس السلطان مع ذلك زيارة ضريح سيدي بوعمران، الموجود بين وربة وبني بوعلام.

حسب الأهالي، كان سيدي احمد الحاج زميلا لسيدي احمد زروق في الدراسة، ولهذا السبب نجد مقدم الزاوية يتم اختياره دائما من بين أحفاد هذا الولي. والمقدم الحالي هو سي محمد بن محمد. سنويا، توفر الزاوية التعليم بالمجان لعشرين طالبا تقريبا، يتم إطعامهم على نفقة الزاوية، التي تتوفر على ممتلكات محبسة عليها، إذ توجد بالقبيلة العديد من أشجار الزيتون وأراض، تسمى الزيتون أو بلاد سيدي احمد زروق.

يقوم سي احمد الأنجري بمهمة الفقيه منذ عشرين سنة، وكلما أبدى رغبته في العودة إلى أنجرة قبيلته الأصلية، يمنعه الولي، الذي يعرف قيمته وطريقته الجيدة. وكلما امتنع عن العمل، رغبة منه في مغادرة المكان، يبقى الولي مربوطا إلى كرسيه بالضريح، وهو الذي أقام خطبة الجمعة بمناسبة زيارة بوحمارة لسيدي احمد زروق.

بركة الولي هي الأفضل على صعيد المنطقة، وعلى الشرفاء الراغبين في الاستقرار بالقبيلة الاعتماد عليه وإبداء الاحترام الواجب (التسليم)، إن أرادوا العيش في أمن وسلام. فالشريف احمد البقالي، الذي استخف بالولي، أبيض هو ومن رافقه من سكان القبيلة. نلاحظ كيف يتخوف أولاد سيدي احمد الحاج من أية منافسة على مهمة مقدم الضريح وكأنهم يقولون: نحن هنا مرتاحون، بالمقارنة مع أي موقع آخر.

لا يمكن للزوار الأجانب تجاوز مدة الضيافة، التي هي ثلاثة أيام، باستثناء الأشخاص طالبي الأمان. عادة ما تتم زيارة ضريح الولي كل سنة خلال فصلي الربيع والصيف، وكل ربع من القبيلة يؤدي فريضة الزيارة منفردا لتلافي النزاعات.

خلال موسم الحرث، يعبر كل فلاح عن طلبه/أمنيته مقابل وعد بتقديم كمية من الحبوب إلى الولي إذا كان المحصول جيدا، وعليه الوفاء بوعده بعد الحصاد، وإلا تعرض لأداء اليمين. ومقابل إنتاج جيد للمواشي، يقدم مربو الأغنام والأبقار أول مولود كهدية لمقدم الولي، وبالنسبة لمالك الفرس، عليه بعد الولادة بيع المولود وتقديم "العشور"، أي عشر ثمن البيع، الذي لن يتم إلا بعد عرض الحيوان في ثلاثة أسواق، ويتم خصم العشر من أعلى ثمن، كي لا يتهم بالغش.

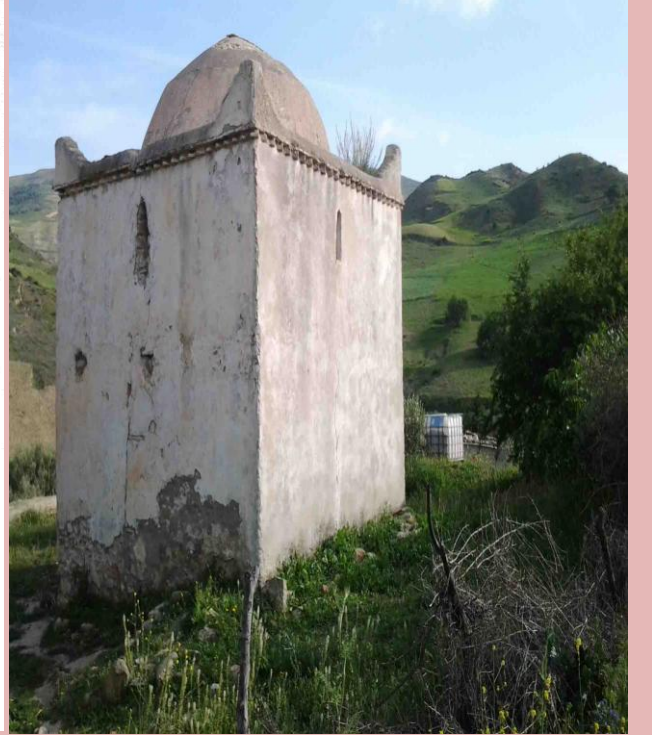
يُطلب من الولي كذلك الوساطة بهدف الحصول على الأطفال الذكور، وعادة ما يقدم ثورا مقابل كل مولود ذكر. بفضل بركة سيدي احمد هاته، يزرق البرانس بالعديد من الأطفال وخصوصا الذكور. بركة الولي تشمل كل شيء، وبفضلها يعتقد الأهالي أننا لم نحقق إلا نصرا جزئيا خلال معركة 21 يناير الأخير. كان الجو صحوا إلى حدود يوم 20 يناير، فتدخل سيدي احمد لمعاقتنا بسبب الهجوم على محمييه، وسلط علينا المطر الذي اضطرنا إلى الفرار.

لم يكن بوحمارة ومن بعده الشنكيطي يجهلان تأثير الولي فقاما بزيارته وطلبا مسانדתه.

يعد سيدي احمد زروق من الرجال السبعة الأولياء، الذين يحظون باحترام البرانس وهم:  
سيدي احمد زروق، سيدي عبد الله بجامع الرملة ( أولاد أجرو) ، سيدي محمد بالهدادية ( اولاد  
عيسى)، سيدي بو يعكوب (الكوزات)، سيدي عبد الله دالخدق ( وربة)، سيدي بو عمران، سيدي  
عمر الزموري (بين الطايغة ووربة).



ضريح سيدي احمد زروق



ضريح سيدي عبدا لله



الكوزات مقر سيدي بويعكوب

تعتبر زيارة واحدة لضريح أحد هؤلاء الأولياء السبعة كافية، وتغني عن زيارة الأضرحة الأخرى.



على كل شخص له طلب أو أمنية مهمة، ويعاني من المشاق والصعوبات في تحقيق هدفه، أن يقوم يوم عرفة بزيارة كل الأضرحة السبعة ما بين طلوع الشمس وصلاة العشاء، ولا يهم من أي ضريح تبدأ جولته.

بدون شك، قرأ سيدي احمد زروق البرنوسي كتب المؤرخين الذين يرجعون أصل قبيلة البرانس إلى ليبيا، وقراره بالتوجه شرقا يمكن أن يكون محكوما برغبته في زيارة مكان استقرار أسلافه وتأسيس طريقة بنفس المكان.

توفي بمسراته، في ليبيا، لكن الأهالي يجهلون هذه المعلومة، بل ليس لهم علم حتى بتاريخ بناء الضريح الذي، حسب اعتقادهم، يضم جنمان الولي سيدي احمد زروق.

مازال سكان البرانس يروون هذه الأسطورة، فقبل وفاته، نادى سيدي احمد على مرافقيه وقال لهم: يوم وفاتي وبعد غسل جثتي الفقيرة، اربطوها على ظهر بغلتي الوفية، ودعوا الدابة تسير إلى حيث تتوقف وترقد.

بعد وفاته، تحركت البغلة المحملة بجثته لمدة غير يسيرة، ثم توقفت بمنبسط الجهة السفلى للوادي، الذي يبدأ من على مقربة الضريح، وما إن بدأ مرافقو الولي بإفراغ الحمولة، حتى نهضت الدابة من جديد وقامت بمجهود أخير، وأصلها إلى المكان الذي يوجد فيه الضريح الآن. كل القبائل البربرية التي سبق لها سماع الحديث عن الإمام الزروقي تعتبره حفيدا لسي الغازي بلقاسم، مؤسس الطريقة الغازية. إنه غموض راجع إلى أن الطريقتين معا، أي الزروقية والغازية، متفرعتان عن الطريقة الشاذلية.

يوجد بني سادن، قرب فاس، كركور (كومة من الحجارة) يقال إنه لسيدي احمد زروق، يرمز إلى مكان استقراره كلما حل بالقبيلة، وهذا الكركور مبني في مكان يسمى أحفور تيمغريوين، أي حفرة الحفلات.

## 7- الأعياد الدينية والحفلات الموسمية

لا يقيم البرانس أي احتفالات خاصة بمناسبة عيد الفطر والولادة. في الصباح، مصحوبا بأبنائه، يحمل كل فرد من الجماعة طبعا إلى الجامع، يتصالح ويتسامح جميع الحضور بسبب ما قد يكون صدر عنهم من سلوكات مشينة أو تهجمات، وزوالا، بعد العصر، ينظم نشاط خاص بالتدريب على السلاح، الكل يشارك، لأن الطبيعة الحربية للقبيلة تفرض على كل محارب أن يكون مدربا وعلى استعداد.

خلال اليوم السابع للعيد الصغير، يتميز الأكل بالتنوع والوفرة، أما في اليوم السابع لعيد المولد، فالعادة تفرض توفر الشخص على الكثير من اللحم.

يتم الاحتفال بعيد الأضحى، أو العيد الكبير، بطريقة متميزة مقارنة مع العيدين الآخرين. في الصباح الباكر، تقام الصلاة جماعة مع أخذ وجبة الفطور في الجامع، وبين العاشرة والحادية عشرة صباحا، تنحر الأضحية، وفي الليل يتم تناول وجبة العشاء بالمسجد.

خلال هذه المناسبة، يتعاطى الجميع إلى التسلية بطقوسها الخشنة، التي تسمى **با الشيخ-بوجلود**، حيث يصل عدد الممثلين فيها عشرة أشخاص: **با الشيخ** (رئيس المجموعة)، وزوجته سونة واعبيدة،

أي شخصيتان ، الأولى عبدة السيد، تحمل قناعا أسود اللون، مصنوعا من جلد الماعز، والثانية هي الزوجة العبدة بوجه ويدين تم طلاؤهم بسواد مادة البارود، ثم باعبو، والتجار اليهود متبوعين بأطفالهم، وتتجول الفرقة بالدوار من دار إلى دار وسط تهجمات السكان.

تختلف طقوس الاحتفال من قبيلة إلى أخرى، ففي قبيلة التسول، نجد اختلافا في الشخصوص وهم: با الشيخ ، وزوجته سونة، وداة الأسيرة، وزوجها عزي، وعبدان اثنين شابين، واليهودي، وباعبو (بوشراوط، أو العطار، التاجر المتجول)، والبغيلة، ثم الحلوف.

بمجرد الانتهاء من عملية التنكر بالحقل، يتحرك الممثلون، وفي مقدمتهم با الشيخ وسونة، بينما داة تمسك بطرف حائك سيدتها. ثم يليهم عزي والبغيلة، في شكل شخص ضخم يضع جمجمة رأس بغل على وجهه. الحلوف شخص ضخم كذلك، أنيابه عبارة عن نعلين حادين، يهاجم المتفرجين إلى أن يسقطهم أرضا، ثم باعبو، الذي يحمل كيسا من الجلد (مزود)، وأقربا به مغازل، يتوسل بدوره الحضور قائلا: ه الكركاع ، ه الكركاع ، ه الكركاع، آآ الذي بيدل شي كركاع ، شي سواك؟ شكون بيدل؟ أما العبدان الشبان فيضربان الأطفال بالعصي لمعاقتهم على شتمهم لبا الشيخ عبارات: آآبا الشيخ، آآعويدة، أقميمة السويدة!

يحمل با الشيخ لباسه اليومي المعتاد، وجهه مغطى بقناع من جلد خروف، ولحية من الصوف تلصق بالقناع بواسطة العجين، ولا يتكلم. أما زوجته، المغطاة بالكامل باستثناء عينيها، فتهاجم كل النسوة المتواجذات أمامها، ومن حين إلى آخر، يمدد با الشيخ زوجته على الأرض وينام بجانبها، ونفس الشيء تقوم به داة وعزي، إلى أن يأتي الحلوف هائجا ليدفعهم بعنف ويأمرهم بالنهوض. يبدأ هذا الاحتفال من آخر النهار إلى الصباح، حيث يتخلص الممثلون من أقنعتهم كي يرتاحوا بالجامع. أما مدته، فتبتدئ من يوم العيد الكبير إلى الليلة التي يكتمل فيها القمر.

ظلت تظاهرة "سونا" تنظم في ربع أولا جرو، بقبيلة البرانس، إلى حدود منتصف ستينيات القرن العشرين، وخاصة بدواري عين ثلاثة وباب جنان.

بالإضافة إلى الأنشطة والمظاهر التي سردها تريغا TRENGA، كان الحفل يتميز بحمل تمثال لجمل، جسمه مصنوع من أكياس القنب وأطراف جلابيب صوف قديمة محشوة بالتبن، يحمله شخصان من الخلف والأمام، لا تظهر إلا سيقانها، فيبدوان كقوائم الجمل، ويتحكمان بحبال في حركات عنقه ورأسه، المصنوع من جمجمة بغل أو حمار. وعند المرور بالمنازل، يعملان، بواسطة فكي "الجمل"، على التقاط قطع من أضحية العيد، التي تكون معلقة على حبال لتجف. كانت "سونا" تنجز يوم ثاني عيد الأضحى، ينظمها وينشطها عادة أفراد فرقة الفراجية ومحبو هذا الفن، ويتبع موكبها حشد كبير من الأطفال والمراهقين والشباب، يتبادلون "القرنابي" مع أبطال وشخصيات التظاهرة، مع الحرص على عدم الاقتراب كثيرا من "مول المزود" المليء بالرماد، لتفادي حفنة منه، يذفها على وجه الضحية في غفلة منه. أما الخطأ الأكبر، فهو الوقوع في يد السائرين قرب الجمل، إذ يمسكون بالضحية ويركبونه على سنامه، وعند الاقتراب من مزبلة، يعطون إشارة إلى حامله، فيسقطانه فيها.

عند بداية حلول الظلام، يتفرق الجمع، ويحتفظ بالجمل وبقية الأدوات لدى أحد المنظمين للسنة المقبلة، ويُنظم عشاء جماعي بما تجمع من عطاءات لحم العيد خلال جولة "سونا" على البيوت.

وشكلت الهجرة إلى أوروبا والانخراط في الجندية أحد أسباب انقراض هذه التظاهرة الاحتفالية بالمنطقة.

محمد الخدادي

## العنصرة:

إذا كان البرانس لا يوقدون النار خلال العنصرة، فإن التسول يشعلونها حتى يصل دخانها أكوام

منتوجهم الزراعي وأشجارهم المثمرة، وما زالوا لحد الآن يرسمون دائرة من الطين المعجون حول جذوع أشجارهم، كي لا تسقط ثمارها قبل مرحلة النضج. رغم أن البرانس والتسول قبيلتان جارتان، فليست لهما نفس الاحتفالات، ففي مواجهة الجفاف المهدد لمحاصيلهم الزراعية، يقدم البرانس الذبائح كهدية لأوليائهم الصالحين، بينما نجد التسول والحياينة يتجولون عبر ربوع قبيلتهم حاملين غانجة (دمية) بعصاتين على شكل صليب. يعتبر البرانس أنفسهم أكثر تدينا من غيرهم، لكن بعض الأهالي يشككون في الأمر ويعطون كمثال أولاد سيدة كفرقة 'خوارجية'، أي التي كانت تتبع البدع في الماضي.

## VI-الحج

### 1-الحج إلى مكة

يتراوح عدد الحجاج سنويا (إلى مكة) بين عشرة وخمسة عشر فردا. وحدهم الأغنياء، وبعد استبدال ثروتهم بالذهب، يستقلون الباخرة من طنجة، وغالبا ما يشكل الحجاج جمعية ويكلفون أحدهم بتدبير الميزانية، أما الفقراء فيسافرون برا عبر الجزائر وتونس وليبيا، وفي بعض الأحيان يدوم السفر ذهابا وإيابا سنتين تقريبا .

### 2-الحج إلى جبل العلم

كما حال جيرانهم، يحج البرانس والتسول إلى ضريح مولاي عبد السلام (بجبل العلم، بإقليم تطوان) خصوصا ليلة عرفة، التي تعرف احتفالا كبيرا وتواجدا مهما للطولية. لا ينسى الرجال مسالة المرور عبر فتحة "حجرة المساخت" التي تبلغ 20 سنتم تقريبا، وعلى كل فرد من الأهالي المرور بهذا الامتحان برأس عار وحسد مغطى بقميص فقط. لا يستطيع الشخص العاق (مسخوط الوالدين) المرور، لأن طرفي الفتحة ينغلقان ويضغطان عليه، ولن يفلت من هذا العقاب إلا بعد رحمة من طرف الحضور. ويمنع على أحفاد بوطواحن، قاتل مولاي عبد السلام بن مشيش، تجاوز وادي الغفران، الذي يبعد عن ضريح الولي بساعة من السير، إذ تُشَلَّ أرجلهم اليمنى بمجرد وصولهم إلى الوادي، ويبقون في مكانهم إلى أن يعود الحجاج ليصحبوهم معهم، لكن أرجلهم تبقى دائما منتفخة.

### 3-الحج إلى مولاي بوسلهام بالغرب

تم زيارته من طرف طولية القبيلة خلال فصل الخريف.

### 4-الحج إلى مولاي إدريس

في السابق، كانت قبيلة البرانس تحج إلى ضريح مولاي إدريس الأصغر بفاس وضريح مولاي إدريس الأكبر بزرهون، وسنة قبل إعلان بوحمارة سلطانا، وللمرة الأخيرة، قاموا بزيارة فاس وزاوية زرهون وقدموا كهدية ثورا و60 دورو لكل ضريح، وحصلوا على علم جديد قدمه إليهم حراس الزاوية.

استعمل ترينغا صيغة "الحج" (pèlerinage) ذات المعنى العام في اللغة الفرنسية، والواقع أن العملية في حالة الأولياء تسمى "الزيارة"، ولا تستعمل كلمة الحج إلا في أداء الفريضة الخامسة في الإسلام بمكة . محمد الخدادي